الطريد الارمني ونجاتهُ من الاتراك

كتبها الفتى الطريد بدروس اراكليان

كان مولدي يوم عيد الميلاد عند الارمن سنة ١٩٠١ في مدينة من ولاية قونية جميلة المنظر مشرفة على بطحاء تسيل فيها الينابيع الصافية تدعى بالتركية نوشهر اي المدينة الجديدة لحداثة نشأتها وهي احدى قائقاميات سنجق يكدى يبلغ عدد اهلها نحو ٢٥،٠٠٠ منهم ١٥،٠٠٠ تركيّ والباقون من اليونان ثمّ الارمن الغريغوريين وقليل من الكاثوليك. وكان اهلي من طائفة الارمن الغريغوريين فاصبحتُ يتيماً بوفاة والديّ وانا صغير السنّ

فلمّا بلغتُ من العمر عشر سنين كان المرسل الغيور الاب حنّا غرنسو (J. Grandsault) اليسوعي يتردّد على مدينتنا ويسعى بشؤون طائفة الارمن الكاثوليك حتّى باشر لهم بتشييد كنيسة مع راعيهم الفاضل الخوري جان اطمنيان . وكان هذا يعرف قرابتي فعرض على اعمامي ان يرسلني الى مدرسة الآباء اليسوعيين في قيصريّة لأتخرّج هناك في مدرستهم الرسوليّة فرضوا بذلك ورضيتُ بهِ فرحاً وقضيت سنتين في قيصريّة ارضع فيها افاويق التقوى والعلوم مع نخبة من اولاد الارمن

فلمّا كانت سنة الحرب ١٩١٤ عدتُ الى وطني لأقضي فيهِ وقت العطلة السنويّة ثمّ عدتُ الى قيصريّة في اواخر تشرين فرآني الاب لوبون اليسوعي (P. Lebon) واختار منّا خمسة لينقلهم الى مدرسة اكليريكيّة جديدة أُنشئت في اماسية وكنت انا احد الخمسة . وكان موعد سفرنا في اوائل تشرين الثاني فقضينا نحو شهرين في دنديل المجاورة لقيصريّة حيث كان حضرة الاب غرنسو ردّ قوماً من الارمن الى الكثلكة واقام لهم كنيسة

فلمّا حان وقت سفرنا ونحن ننتظرهُ بفروغ الصبر اذ اتانا من قيصريّة الاب غرنسو وانبأنا بدخول الدولة العثمانيّة في الحرب وبسفر الآباء الرسلين الى فرنسة وامرنا بالرجوع الى قيصريّة . فكان لهذا الخبر اسوأ وقع في قلوبنا . وكان معنا الاخ اليسوعي بالبان الذي قتلهُ الاتراك بعد حين مع كاهنَيْن ارمنيَّيْن كاثوليكيين بين سيواس

وقيصرية بعد استانبول بقليل فاتجهنا الى قيصرية حيث ودّعنا الآباء قبل سفرهم الى فرنسة . اكرمَ الاب الرئيس اوصى بنا السيد انطون بهامنيان اسقف قيصرية الارمني ورغب اليه ان يبلّغ كلًا منّا الى وطنه . فبقيت في الدار الاسقفية نحو شهرين ثم قفلتُ راجعاً الى مسقط رأسي في نوشهر وذلك في فصل الشتاء . وسكنت عند اهلي الى شهر آذار من السنة ١٩١٥

ونحن لكذلك اذ سمعنا في سحر احد ايام الشهر المذكور منادياً يجول في البلد صارخاً : « أيها الارمن استعدّوا للخروج من المدينة » . وبعد قليل نحو الساعة الخامسة صباحاً تهافت مأمورو الحكومة الى بيوت الارمن مع الشرط المسلّحين بالبنادق فاوقفوا الرجال من سنّ الخامسة عشرة الى الستين فأوثقوهم وسلّموهم الى الشرط الذين ساقوهم الى الحبس بالشتم والضرب . فاستمرّ ذلك نحو اربع ساعات حتّى لم يبقَ اثرٌ لرجال الارمن وشبّانهم . وبقيت النساء والصغار وكلّهم يبكون

ومع كوني لم ابلغ من العمر ثلث عشرة سنة ساقوني الى الحبس مع بقيّة الاسرى . وبعد ثلث ساعات جاء مفوّض الشرط مع خمسة من مأموري الحكومة وعشرين شرطياً وكلّهم شاكون في الاسلحة واخذوا يفتّشونا لعلّهم يجدون معنا فروداً او سكاكين . ثم أفرز المفوّض من بين الاسرى الذين لم يبلغ عمرهم التاسعة عشرة وردّوهم الى اهلهم ليسافروا الى المنفى مع النساء

فخرجتُ من الحبس وتأهّبت للسفر مع اختي وابناء اعمامي وخالاتي . وكان والديّ قد توفّيا كما سبق ولم يبقَ لي غير اخ واحد واختي هذه واسمها وَرْد . اما اخي فكانت الحكومة اخذته كجندي وارسلتهُ الى الاستانة وكان هناك زوجُ اختي ايضاً . وكان اخي لمّا خرج من البيت اودع كلّ اثاثه في غرفة أقفلها وسلّم مفتاحها الى عمّي . فطلبت منهُ المفتاح لأبيع ذاك الاثاث وانتفع بثمنه . فلمّا وصلتُ الى بيتنا وجدت الباب محطّماً وبعض شبّانٍ من الاتراك ينهبون ما فيه من الاثاث ويقتسمونها بينهم . فخفتُ على نفسي وعدتُ مسرعاً الى اختي لكي اخبرها بما عاينت . ولم يكن معي شيءٌ من الدراهم الّا ان اختي كانت اخذت معها عشرين ليرة تركيّة . اما اثاث البيت فقطعتُ منهُ الامل ولو كنتُ عرضتهُ للبيع لما كان اشتراهُ مني احد لأن اهل البلد الاتراك كانوا عارفين انّ سفرنا سيكون مشياً ولا يمكننا ان نحمل اثاثنا

ففي تلك الليلة استحضرنا شيئاً من الزاد ما يكفينا لبضعة ايام مع ثلثة ألحفة وبعض الثياب . وفي الصباح أعطت الحكومة لكل عائلة حماراً الى اورلو قشله حيث توجد محطَّة للسكَّة الحديديَّة . وكنَّا نحن اربعة انا واختي وَرْد مع ولديها اغوب واراكل وعمرُ الاوَّل ثماني سنين والثاني خمس سنوات . فاكَّفنا الحمار وجعلنا عليه حوائجنا واركبنا الولدين فوقها وصرنا انا واختي ماشيين بجانبيهما لاسندهما

ولمَّا كانت الساعة التاسعة كنت ترى كلّ هذه عيال نوشهر الارمنيَّة سائرةً على طريق بوزنتي . فيا لهُ من منظر يفتت الاكباد فبلا يُسمَع الَّا عويل النساء اللواتي يبكين على ازواجهنَّ والاطفال على والديهم وليس لهم من يسهر عليهم وكلُّهم يجهلون ما سيكون نصيبهم وما سيحلُّ بالاسرى المحبوسين

وصلنا عند المساء قريباً من جدول ماء بجوار نكدى فنزلنا هناك في حقل وفرانصنا ترتعد خوفاً من عصابات اللصوص الذين تجمَّعوا لمطاردتنا وليس يخفرنا سوى شُرَطيَّين لا يهمُّهما امرُنا فانَّهما قالا لنا : « إن دفعتم لنا المبلغ كذا حميناكم والَّا تركناهم وشأنكم لا بل نخبر اللصوص فيأتون ويسلبون كل مالكم ويقتلونكم » فكان كلامهما كسيف في قلوبنا كاد يخرجنا عن صوابنا . امَّا النساء فاخذنَ يبكينَ ويولولن . الَّا ان ذلك لم يؤثر فيهما الى ان قام احد الشبَّان فجمع خمسة ريالات من كلّ عائلة واعطاهما اياها

فبتنا تلك الليلة بالهدوء . وفي الصباح الساعة السادسة رحلنا سائرين الى بلدة « اورلو قشله » التي بلغناها في اصيل النهار . وكانت البعض من عجائز النساء والبنات يتخلَّفن عن القفل لضعفهنَّ عن المشي فكان اشقياء اللصوص والشركس يسلبون ما عليهنَّ ويخطفون البنات

مكثنا في اورلو قشله خمسة ايام قضيناها تحت الخيام ننتظر مسير قطار السكَّة الحديديَّة . الَّا انَّ البعض ركبوا عربات فسبقونا الى بوزنتي . امَّا انا فواجهتُ رئيس المحطَّة في اورلو قشله وكان من اليونان فأحسن معاملتي وآنسني وسهَّل لنا السفر عند ورود القطار ولولاهُ لاضطررنا ان نسير مشاةً ثلاثة ايام في وسط جبال شاهقة وغابات الشجر الكثيفة . فليت شعري ماذا كان حلَّ بنا فلا شكَّ انَّ قوانا كانت خارت فنضطرّ الى ان نلقي قسماً من امتعتنا ! وكيف العمل مع الولدَين والصغيرُ يصيح مُعوِّلاً اذا

ابتعدت امهُ عنهُ قليلاً : فشكرنا الله على عنايته به.

وفي الغد الساعة الثامنة من يوم الثلاثاء ٢٠ آذار سار بنا القطار فنقلنا الى بوزنتي التي اليها كان منتهى خطّ السكة الحديدية . وبوزنتي هذه قرية صغيرة الّا انها حريزة موقعها في مدخل جبال طورس وهي من حدود ولاية آطنة وصلنا اليها في مساء النهار

وكان يلزمنا ان نسير منها الى طرسوس مدة يومين . فلم ندرِ ما نصنع اذ لا نستطيع المشي مع الصغار وكان الحوذيّون يطلبون عشر ليرات اجرة عربة . فاتفقنا اخيراً مع عائلة أخرى وتقاسمنا نفقة العربة . وكم وجدنا في طريقنا من فقراء ومبؤوسين بل من النساء الرخائص والمتزوّجات وهنَّ لم يعتدْنَ المشي كنَّ يدلفنَ ويسقطن مراراً لعجزهنَّ ومعهنَّ اطفالهنَّ في اسوإ حالة لا يشأنَ ان يتركنهم او يمشينَ معهم . وكنَّ يصرخنَ الى السابلة : «ألا من يُحسن يسعفنا وينظر الى شقائنا» ولكن «لا سماعَ لمن تنادي »

قضينا سبعة ايام في طرسوس وساقونا منها الى آطنة حيث مكثنا شهراً ثمَّ اخذونا الى عثمانية فنزلنا هناك في سهل فنصبتُ للحال خيمتنا الصغيرة ليستظلَّ تحتها صغارنا وهناك تفاقت اوجاعنا . فانا كنا صرفنا كلّ دراهمنا ونحن نتوقّع اسفاراً بعيدة . وكانت اختي تهطل الدموع السخينة بسبب همّها فكنتُ اعزّيها بقولي : «لا تأسفي يا وَرْد فانَّ الله رحوم قدير واذا وصلنا الى حلب فاني سأجد شغلاً ولن نموت جوعاً »

وبعد خمسة ايام قدم بعض من الارمن معروضاً لقائمقام العثمانية يقولون فيه : «لا نستطيع ان نبقى هنا اذ ليس معنا دراهم لنشتري لنا طعاماً ولا نلقى شغلاً نكسب به معاشنا فأرسلونا الى محل آخر او أعطونا طعاماً» فاستدعانا القائمقام وقال لنا : « ان شئتم ان تسافروا فهنا اربعون عربة تجرُّها الجواميس اجرةُ الواحدة سبع ليرات ذهباً من هنا الى قطمة فاركبوها والّا فلا يهمّني امركم» . فقلنا : « كيف نُسافر ونحن فقراء لا مال عندنا » . فاجاب : « فليسافر الذين يمكنهم دفع اجرة العربات . ولينتظر الباقون وصول عربات الحكومة بعد عشرين يوماً »

فأقنعتُ اختي الرحيل مع غيرنا ودفعنا الثلث ليرات الباقية معنا . وكانت المسافة بين «العثمانية» وقطمة ستّة ايام فنالنا في هذا السفر مشقّات عظيمة واتعابٌ

جسيمة . فقطعنا طرقاً صعبة بين الاحراج وبلغنا بعد ثلثة ايّام الى قمّة جبلٍ عالٍ فاراد الحوذيّون ان يُفلتوا منّا ويدَعونا في وسط الطريق . فناشدناهم الله ألا يهملونا في تلك القفار بعد ان دفعنا لهم اجرة العربة . فاجابوا : انّ الجواميس قد كلّت فلم تَعُد تستطيع ان تسير بنا لتعبها ، فلم يبقَ لنا الّا ان نتحوّل عن العربة انا واختي وراكبان آخران فسرنا على الاقدام مدّة ثلثة ايّام حتّى بلغنا قطسة بعد الجهد الجهيد . وكان لا يزال الشتاء شديداً فقضينا قسماً منهُ هناك فاصابنا أذى البرد والامطار وكنّا مع ذلك نشتغل على قدر طاقتنا فنكسب معاشنا اليومي . ثمّ دخل الربيع والصيف ونحن في قطسة فلمّا كان شهر تشرين الثاني ركبنا القطار الى حلب فوصلنا اليها بعد ساعتين .

*

كان كيسنا قد فرغ تماماً عند دخولنا الى حلب وكنّا قضينا مدّة طويلة بلا اكل البتّة . فلمّا نزلنا الى المحطة اتى الشرط وقادونا الى احد خانات المدينة وظلّوا يراقبوننا لئلا نفرّ هاربين ريثما يوافون قفلاً فيضمّونا اليهِ ويسوقونا الى داخل البلاد . فنزلنا في احد اطراف الخان وشرع ولدا اختي يبكيان ويطلبان طعاماً ولا طعام عندنا فصارت اختي تذرف الدموع مثلهما . فقلت لها : « كفكفي دموعكِ فها انا اذهب وآتي بطعام » . فاخذتُ كيساً صغيراً وطفتُ في احياء المدينة استعطي . فبعد ساعتين وجدتُ كيسي قد امتلأ فرجعتُ فرحاً الى الخان

وانا في الطريق اذ مررتُ ببيتٍ كان واقفاً على بابهِ الدكتور اوغست كوسا مع قرينتهِ . فدعاني اليهِ وكلّمني بالعربيّة وجهلي هذه اللغة لم أُجبهُ . ثمّ لحظتُ انّهُ يحادث زوجتهُ بالفرنسويّة فكلّمتهُ انا ايضاً بها . فسُرّ من كلامي وسألني عن اصلي وعن سبب وجودي في حلب . فلمّا سمع خبرنا وكيف نُفينا من بلدنا نوشهر واتينا حلب فأخذتهُ الشفقة علينا فتكرّم عليّ بعشرين غرشاً واهداني زوج كلسات واحذية ورداء واوصاني ان اعود اليهِ لأطلب منهُ طعاماً . فاقتبلت كلّ ذلك شاكراً وانا في امسّ الحاجة اليهِ وحملتهُ الى اختي التي لقيت فيهِ فرجاً

وذهبت الى كنيسة الارمن الكاثوليك فواجهت الكهنة واخبتهم بحالنا فقالوا لنا : ان أمكنكم ان تهربوا من الخان فنحن نجد لكم مأوًى امينًا وقد اظهر لنا الخوري جبرائيل الارمني كلّ شفقة وحنان واحسن الينا كثيراً . فبعد ايّام قليلة

مرحت لا تسوّل في المدينة فلما رجعت وجدت اختي تذرف الدموع وتعانق ولديها. فسألتها ما الخبر؟ قالت - الشرطي وامرنا ان نسافر الى كلس. فذهبت لاستعطفه قلت: سيدي ترحّم علينا ليس عندنا شروى نقير وهاك ما جمعته متسوّلا في انحاء البلد فماذا يحلّ بنا ان خرجنا من حلب؟ — فكان جوابه ضربتين بسوطه ثم قال: ان لم تخرجوا بعد ربع ساعة من الخان قتلتكم. فلم تر بُدًّا من الخروج فلمسنا امتعتنا في صُرّة جعلتها على ظهري وامسكت الطفل اراكل بيدي وحملت اختي اللحاف واخذت ابنها اغوب وسرنا مع الشرط الى المحطّة الجديدة واذا هناك عدد كبير من الارمن يزاحم بعضهم بعضاً وهم يزفرون وينوحون. وكان الجميع موقنين بالموت العاجل لقرب حلول الشتاء.

*

لا تبلغ السكّة الحديديّة الى كلس فقضي علينا ان نعود الى قطمة. فانتظرنا هناك شهرا قبل ان يستحضروا عربات تقلّنا الى كلس فنقلونا اليها في كانون الثاني سنة ١٩١٦ وانزلونا في بيرت اهلها الارمن الذين كانوا نفوهم الى الداخليّة. وكان الشتاء شديد الوطأة ونزل الثلج بعد وصولنا بقليل فبقينا محتارين في امرنا ونحن لا نملك دراهم وليس لنا ثياب دافئة ولا وقود لنستدفئ. فقمت ثانية اجول في البلد لالتمس الصدقة فما كان احد يحسن اليّ بشيء ولم يكن في البلد نصارى اذهب اليهم وغاية ما كانت الحكومة توزّع على كلّ منّا رغيفان صغيران من الخبز لا يتجاوز وزنهما نصف كيلو (١٥٦ درهماً). فمات حينئذٍ ابن اختي اراكيل الصغير جوعاً وبرداً

وقد قاسينا نحن في كلس من البرد ما يطول شرحه وكنّا نتلهّب جوعاً الّا انّ الحكومة خفّفت نوعاً من ظلمها ونفحتنا بشيء من الدراهم. بقينا في كلس نحو شهرين وعيّدنا فيها عيد الفصح لكنّ حالتنا التعيسة لم تسمح لنا بأن نذوق شيئاً من افراح العالم النصراني. وفي اوائل شهر ايّار اتت اوامر جديدة بان نخرج من كلس ونتوغّل في الجهات الداخليّة وكان البرد لا يزال شديداً. واذا بالشرط وافونا يوماً تهطل فيه الامطار مدراراً وهم مدجّجون بالاسلحة فقالوا: «قوموا لتقودكم الى احدى القرى». فيا لله كيف نسير والامطار متوالية والبرد قارس. لا شكّ انّ الحكومة تريد ان تهلك برداً وجوعاً. فبعنا لحافنا بخمسة ارغفة من الخبز لئلّا نموت من الجوع

في الطريق ولكن ماذا تفيد خمسة ارغفة لمن يتضوَّر جوعاً فلا تسدّ عوزهُ ساعةً . فاخذتُ ابن اخي اغوب وحملتُ اختي معطفَيْن عتيقَيْن لنتَّقي بهما البرد

فكان خروجنا من كلس والمطر يهطل سيولًا ولم ينقطع طول طريقنا فصارت ثيابنا عُضرةً وسرنا على هذا المنوال ساعاتٍ حتَّى وصلنا الى عزيزيَّة . وكان هناك سهلٌ نُصبت فيه نحو مائتي خيمة يبيت فيها الارمن المنفيُّون مثلنا فانطرحنا على الحضيض قريباً من بيت خراب وثيابنا مبلولة فكنَّا نقتفت ونرتعد من شدَّة البرد ولا نار لنصطلي بها فأنسانا البرد جوعنا وكدنا نيأس من الحياة فتوسَّلنا الى الله لكي ينقذنا من تلك التهالك اما أنا فتلوت فعل الندامة وظننتُ انَّا لا نعيش الى الصباح . وكيف نعيش بعد ان مشينا الساعات الطوال مع البرد القارس ودون غذاء ثمَّ نرقد بثيابنا المبلولة . فلولا رحمة الله لمَا بقينا في الحياة

فلمَّا اصبح الصباح نظرت الى الخيام واذا سُتُّون منها قد مات اصحابها ولا عجب بعد ما خارت قواهم من الجوع وجُلدت اجسامهم من القرّ . فتركوهم وشأنهم دون ان يدفنوهم فأصبحوا طعمةً للكلاب وللضواري . وقد عاينت كلباً نتر ذراع احدهم وذهب بها ليغتذي بلحمها . ورأيت رجلًا جمَّدهُ البرد كان على آخر رمق فكان يَعد بليرتَين من يطمرهُ في زبل الخيل ليدفأ

بقينا في العزيزيَّة ثلثة ايَّام ساكنين في القفر ثمَّ اتت اوامر اخرى لينقلونا الى « الباب » سائرين على الاقدام فكان اكثر الارمن اعلَّاء لا يستطيعون الحركة الَّا انَّ المأمورين لم يرحموا احدًا وكانوا يضربون بالعصيّ كلَّ من يتأخر عن المسير وقد رأيتُ شرطيًّا يضرب ضرباً مبرِّحاً اثنين من الارمن حتَّى سقطا بلا حراك فامر بدفنهما قبل ان يموتا

فقلتُ حينئذٍ لاختي : « لا سبيل الى الخلاص فلنسِر متَّكلين على الله . وان خارت قوانا فنموت على الطريق » . ولكن ماذا نصنع بأغوب ابنها وكان مريضاً ؟ فحملتهُ على ظهري لكنَّهُ ما كان يمكنهُ ان يتمسَّك بي . فاخذتهُ بين ذراعيّ وانا اعلم اني لا استطيع ان احملهُ طويلًا وبعد قليل اضطررتُ الى وضعهِ على الارض . وكانت اختي تسحفُ سحفاً لضعفها . فرأينا موكب الارمن يبتعد عنَّا وكدنا نبقى وحدنا مع خطر اللصوص المترصِّدين لكل من يتخلَّف عن الجمع . ولكن أيمكنُّا ان نمشي

والولد ملقى على الحضيض وقلب امه يتفطر عليه حزناً

وبينما نحن نفكر في امرنا واذا بقوم من العرب خرجوا علينا فصرختُ لاختي : «الويلُ لنا ان لم نسرع فها هوذا العدو يدركنا». قالت : «دعني اموت هنا وانج بنفسك». قلتُ : «كيف ادعكِ وهؤلاء اذا ادركوكِ خطفوكِ . فهلُمّي وانا اسندكِ وبعد ساعة نصل الى قرية قريبة . . . اما اغوب فانهُ كاد يُسلم الروح فنُودعهُ لرحمة الله» . ثم جذبتُها وسندتها على كتفي وعينها متّجهة الى ولدها ومشينا هكذا حتى وصلنا بقوّة الله الى بلدة الباب وهي مدينة صغيرة الساحة على مسافة ٤٠ كيلو متراً شرقيّ حلب تحفُّها البساتين واهلها نحو ٨،٠٠٠ وفيها قائمقام

فما وصلنا اليها حتّى خرجتُ الى سوقها لأتسوّل وانعش قواي وقوى اختي المنهوكة . لكني لم أجد محسناً وليس عندي ما ابتاع طعاماً فتغلّب عليّ القنوط وساومتُ امرأةً رغيفين من الخبز طلبتْ فيهما عشر غروش فاخذتُهما كأني أريد معاينتهما ثمّ تسلّلتُ بين الناس راكضاً فقامت وراني لكنّها لم تدركني في تلك الزحمة

ورحمنا الله في «الباب» فانا وجدنا هناك امرأة عمّي وولديها وكلّهم مثلنا في حالةٍ يُرثى لها لكنّنا جمعاً القوى مذ ذاك الحين واخذنا نتعاطى معاً بعض الاشغال فحصلنا على كفاف معاشنا . ثمّ ان الله رزقنا بوجهٍ آخر . خرجتْ اختي وخالتي معاً الى حيث كان نزل الارمن فوجدتا هنالك اسالاً ملقاةً من ثياب المائتين فاخذتاها واذا في جيب ثوبٍ منها ستّ ليرات ذهباً كانت لنا بمثابة كنز ثمين ولولا ذلك لهلكنا كنا من ذوي جنسنا كانوا يموتون كلّ يوم

كان مقامنا في الباب خمسة عشر يوماً . ثم امرونا بأن نتوجّه الى دير الزور فاكترينا جملًا بليرتين وسرنا بأمان الله وقد وجدنا في طريقنا شذّاذ العرب المتلصّصين لكنّ الله نجّانا من يدهم

*

كان وصولنا الى دير الزور في اواخر حزيران سنة ١٩١٦ فقصدنا ان ننزل في داخل المدينة لكنّ الحرّاس لم يسمحوا لنا بذلك فقطعنا نهر الفرات ونزلنا في البرّية . وكان عدد الارمن المتجمّعين هناك نحو ١٥،٠٠٠ كانوا يسكنون المضارب وكان يزيد عدد القادمين منهم كلّ يوم نحو الف . فاخذوا ينقلونهم فرقاً فرقاً الى

جهـات مختلفة ليقتلوهم فمنهم من ساروا بهم الى رأس العين ومنهم الى ابي كمـال وغيرهم الى عانة

وكنّا نعلم ما ينتظرنا فأصابنا من الشدائد والهموم ما انسانا اوجاعنا السابقة اذ كنّا نؤمل في طريقنا ان نفلت من ايدي اعدائنا امّا هنـا فلم يَمُد لنا بارقةُ أمل في النجاة فغُصنا في بحر الاكدار

واوّل من دُعوهم الى الإعدام الرجالُ والشبـّان فكانوا يربطون ايديهم ثمّ يسوقونهم امـامهم كالنعـاج ويقتلونهم اشنع قتل امام نسائهم واهلهم . ثم كانوا يقتلون النسـاء ويسبون البنات فيأتي الشركس ويخطفونهنّ . وكان بلغهم انّ بعض نساء الارمن كنّ ابتلعن نقودًا لئلا يأخذها الاتراك فكان هؤلاء يبقرونهنّ لاستلابها

ثمّ وصل الدور الينا فدعوا اختي وخالتي وأبعدوني عنهما فتفتّت كبدي لهذا الفراق وكانتا تعلمان انهما سائرتان الى الموت اذ اننا كنّا نسمع صوت البنادق وصياح المائتين . وكانوا يرمون الرجال بالرصاص امـاً النساء فكانوا يزربونهنّ كالغنم في مغارة هناك محفورة في الرمل ويجعلون على مداخلها اعشاباً يضرمونها فيمُتْنَ خنقًا او حرقًا

وقد دامت تلك المجازر في دير الزور ثلثة اشهر لكـثرة من جلبوهم الى تلك الانحاء من الارمن ما عدا الذين قُتلوا في رأس العين وابي كمال وعانة وفي ضياع اخرى

وكان الاتراك في دير الزور لا يمـُّون الصغـار فجمعوا الاطفال والاحداث بعد قتل اهلهم وفرّقوهم في الخانات . فاخذني احد الشرطيّين مع ولدَي عمي وجعلنا في خان كبير دعوهُ بالمأوى وكانوا لا يعطوننا كلّ يوم سوى الماء ونصف رغيف من الخبز فكان الاولاد يموتون كلّ يوم بالعدد العديد وكان نومنـا على الحصر . فما لبث ابنا عمي ان هلكا من الجوع وكنت انا في حـالة من الضنك اتوقّع الموت قريباً وبلغ الجوع ببعض الفتيان الى ان اكلوا العظام ولحوم الحيوانات الميتة بعد نتنها

فقصدت يوماً ان افوز بنفسي واهرب عند احد اهل المدينة فتلوتُ فعل الندامة والتمستُ من الله ان يخلّصني من كربتي ونذرتُ اذا نجوت ان اخصّص نفسي لخدمته تعالى في الكهنوت فخرجتُ من الخان هائمًا في وجهي الّا اني سقطتُ بعد قليـل اضعف قواي وكان اصحاب الخان لحظوا فراري فجاء الحارس مسرعاً وضربني بعصاهُ ضرباً اليماً فغُشي عليّ فظنّ اني قضيتُ فذهب ورجع بعـد ساعة فرآني بين حي

وميت فرحني واعطاني ماء فشربتُ واطعمني رغيفين فعادت اليَّ قواي شيئاً فشيئاً فرجعتُ معهُ الى المأوى

*

على انَّ الاتراك بعد شهرين عزموا على قتلنا . وكان متصرّف دير الزور زكي باشا علجاً شرس الاخلاق ظالماً . ومن اعماله الهمجيَّة انَّهُ صوَّب يوماً غدَّارتهُ على أَمَةٍ ارمنيَّة كانت في خدمتهِ فقتلها . وكان يخاف من ان يسلم احد طعامَهُ فكان كلَّ شهر يستبدلُ خدَّامهُ واذا اتوهُ بطعام ألقى منهُ لقمةً لكلبهِ ليختبر خلوَّهُ من السم . ويوم سار الى مضارب الارمن ليأمر بقتلهم كان يسوق عربتهُ خوذيٌّ ارمني فما قطع الفرات حتَّى رماهُ بالرصاص والقى جسمهُ في النهر . وكان اذا تلهَّى يجعل بازانهِ بعض الارمن او غيرهم فيقتلهم بيدهِ . فزكي باشا المذكور اراد ايضاً ان يقتل الاولاد كما قتل اهلهم . لكنَّ الله انقذني من جورهِ

ففي مساء احد الايَّام ارسل عرباتهِ الى مأوانا فقال المأمورون للعَبسية : اركبوا لنأخذكم الى احدى الضياع . فركبوا هؤلاء المساكين على بعضهم . فادركتُ غايتهم في قتلنا وكانت رجعت اليَّ بعض قواي فعوَّلت على الهرب بعون الله . فاسعدني الحظّ على تحقيق نيَّتي . فما خرجنا من المأوى حتَّى اعتزلتُ عن رفقتي وسرتُ متَّجهاً الى الجبال المجاورة لكني بعد نصف ساعة اضنكني المسير فرميت نفسي في خندقٍ ومن هناك كنتُ اسمع صياح الاولاد الذين كانوا يرمونهم في الفرات . وقد اخبرني بعد ذلك واحد منهم انهُ تمكَّن من الخلاص بالسباحة مع بعض الاحداث ثمَّ هربوا الى بعض منازل العربان

وفي صباح اليوم التالي رجعتُ الى البلد مستخفياً وذهبت الى بيت احد النصارى من اعيان طائفة الموارنة يُدعى يوسف تَوْتَل . فهذا الرجل الكريم اخفاني في دارهِ مدَّة شهرين ولم يدعني اخرج لأنَّ الشُّرط كانوا يدورون البلد ويفتِّشون البيوت لعلَّهم يجدون ارمنيًّا ليقتلوهُ . فبقيت عندهُ وتعلَّمتُ قليلاً من اللغة العربيَّة . وكان الخواجا يوسف يعاملني معاملة الاب الحنون وقد خلَّص من الموت غيري ايضاً من نساء واولاد . ومثلهُ الخواجا يوسف سكَّر فانهُ طاف في احياء العرب حول دير الزور وجمع في بيتهِ من وجدهُ من اولاد الارمن واحسن اليهم . جازى الله خيراً هذين الرجلين

فبعد اشهر لمّا هدأت الامور وانتهى عمّال الدولة من قتل الارمن ألبسني معلّمي لباساً لائقاً واخذني الى مخزنه وادّعى انّي اصغر اخوته ودعاني كامل توتل. فاحسّ بي الشُرط وارادوا القبض عليّ لكن المسيو توتل كان يدافع عني ويكسبهم ببعض الدراهم وهكذا نجوت من يدهم

صرفتُ سنتين في خدمة هذا رجل الخير حتى دخل الانكليز في تشرين ١٩١٨ دير الزور فسلّمني بضائع من ماله لأبيها في بغداد ففعلتُ ثمّ عدتُ راجعاً اليه. ولمّا بلغني دخول الانكليز الى حلب طلبت من المسيو توتل ان يسمح لي بالسفر فرضي بذلك واعطاني كل ما احتاج لسفري

فلمّا وصلتُ الى الشهبا. واجهتُ كاهناً ارمنيّاً فافادني عن رجوع الآباء اليسوعيين الى آطنه ومن جملتهم الاب غرنسو فكتبتُ لهُ حالاً كتاباً أعلمهُ بأمري. وبعد ثلاثة ايام قبل ورود جوابهِ سافرت الى آطنه فنالني من الفرح لمشاهدتي الآباء ما لا يصفهُ لسان وقبلني الاب الرئيس في جملة تلامذة المدرسة فقضيتُ هناك سنةً بتمّ. ثمّ كتبت لحضرة الاب لويس وبيّنت لهُ امر دعوتي للكهنوت وبواسطتهِ تيسّر لي الدخول في مدرسة بيروت الاكليريكيّة في السنة ١٩١٩ فوصلتُ اليها في ١٠ تشرين الاوّل وفي اليوم عينهِ لبست ثوب الاكليريكيين ولم ازل منذ ذاك الى الآن اقدّم آيات الشكر لله على نعمهِ اليّ طالباً من مراحمهِ ان يوّهلني لبلوغ سرّ الكهنوت

النصرانيّة وآدابها
بين
عرب الجاهليّة

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

العلوم والصنائع بين نصارى العرب (تابع)

وها نحن ننقل هنا صور ثلثة نقود عربيّة ترتقي الى اوائل الاسلام وعليها صور ملوك الروم ورموزهم المسيحيّة